

مقدمة جغرافية تاريخية عن القارة الأفريقية

تعد قارة أفريقيا، القارة الثانية بعد آسيا من حيث المساحة والسكان. وهي جزيرة واسعة يمر خط الاستواء من وسطها تقريبا وأكثر أجزائها تقع بين المدارين الجدي والسرطان، لذلك غالبا ما يطلق عليها إسم (أفريقيا المدارية) وقارة أفريقيا جزء من العالم القديم الذي يضم فضلا عنها قارتي اسيا، وأفريقيا وتنحصر قارة أفريقيا بين خط عرض (٣٧,٢١) درجة شمالاً، و(٣٤,٥١) درجة جنوباً، كما تمتد بين خط طول (٥١,٢٥) درجة شرقاً و(١٧,٥) درجة غرباً. وهذا يعني أن أكثر من ثلاثة أرباع القارة يقع في النصف الشرقي من الكرة الأرضية.

انعكست آثار موقعها المداري على طبيعة المناخ الذي غلبت عليه صفة المناخ المداري مما انعكس على واقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها. فعلى الرغم من أنها ضمت أكبر المناطق الصحراوية في العالم، إلا أنها تميزت بتعدد المناخات فيها. إذ ساد مناخ البحر المتوسط في شمالها واقصى الجنوب في حين غلب المناخ الاسيوي على وسطها ولقد أدى ذلك إلى تنوع منتجاتها الزراعية وزيادة اهميتها الاقتصادية.

تطل قارة أفريقيا على محيطين مهمين هما : المحيط الأطلسي من ناحية الغرب: والمحيط الهندي من ناحية الشرق الأمر الذي زاد من اهميتها الاستراتيجية، وذلك لأنها تمتاز بخلو سواحلها من التعاريج والخلجان واشباه الجزر، وهذا أدى إلى قيام سلسلة من الموانئ الطبيعية الصالحة لرسو السفن. كما أن هذه السواحل كانت الطريق الذي ربط بين داخل القارة والعالم الخارجي، فمنها نفذت قوى الاستعمار الأوربي في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر. ولما كانت القارة الأفريقية تمثل الحاجز الذي يقف في وجه الطرق البحرية التي تصل بين الأطراف الشرقية لقارة اسيا والأطراف الغربية لقارة أوربا، فقد تم التركيز، في عصر الاستكشافات الجغرافية، على البحث عن الطرق الساحلية في الدرجة الأولى، ومن ثم الطرق الداخلية التي تربط بين السواحل وداخل القارة، ولقد أدى ذلك كله إلى

بروز أهمية الموقع الذي احتلته القارة الأفريقية من حيث إشرافها على طرق المواصلات التي تربط بين الشرق والغرب. كما ازدادت فيما بعد، أهمية موقع الجغرافي في مجال العلاقات الدولية.

وبالنسبة إلى توزيع الجماعات والعناصر البشرية في القارة الأفريقية، فإن دنييس بولم في كتابه : الحضارات الأفريقية يشير إلى أن خارطة المناطق الطبيعية ضرورية أنه تم توزيع الجماعات البشرية في صحراء كالا هاري Kalahari تسكن البوشيمان Borhinians و هم أقدم جماعة ظهرت في أفريقيا الجنوبية، أما قبائل الهوتانتوس من Hottentots فتنشر في الجنوب الغربي من أفريقيا ويقسم الهوتانتوس بحسب اللغة إلى بضع مجموعات رئيسة هي : الناما، والكو رانا، والكونا وثمة قرابة واضحة بين الهوتانتوس والبوشيمان من حيث السلالة اللغة. ويعد البوشيمان والهوتانتوس من أقدم العناصر التي سكنت القارة ويعد الأقزام Pygmees من المجموعات التي استقرت في القارة الأفريقية منذ فترة طويلة. وهم من العناصر التي اعتصمت بالغابات الأستوائية الكثيفة حيث تمارس جماعاتهم الصغيرة الصيد.

ويمثل (الزواج) العنصر الرئيس السائد في أفريقيا المدارية، ويمكن تقسيم (الزواج) إلى مجموعتين رئيسيتين هما : مجموعة (الزواج) السودانيين ومجموعة (زواج) البانتو ويتركز (الزواج) السودانيون في ساحل خليج غانا ومن الجماعات (الزنجية) الولون، والسرر والتوكلور والماندنيجان وقد أنتشر الدين الإسلامي بين هذه الجماعات. كما كان لهم مراكز حضارية معروفة. أما (زواج) البانتو فينقسمون إلى ثلاثة مجموعات هي البانتو الشرقيون الذين اندمجوا بالهاميين، ويصل بعض هؤلاء إلى شمال بحيرة فيكتوريا والبانتو الجنوبيون ويقطنون جنوب نهر الزامبيز والبانتو الغربيون أو سكان الكونغو. وقد تأثرت مجموعات

البانتو بالعرب. حتى كان من نتيجة ذلك اشتقاق لغة جديدة تعرف باللغة السواحلية، وتمثل خليطاً من اللغة العربية ولغة البانتو.

وهناك المجموعات القوقازية التي جاءت إلى الجزء الشرقي من القارة الأفريقية عن طريق شبه جزيرة العرب وقد اطلق عليهم كذلك اسم الحاميين. وقد انقسمت المجموعات القوقازية إلى قسين، القسم الذي اقترب من سواحل البحر المتوسط والقسم الذي اقترب من المناطق الشرقية للقارة قريباً من مناطق الأنهار.

ويستقر العرب في أفريقيا منذ فترة ما قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة، إذ يشير المؤرخون الى وجود ترابط قوي بين الجزيرة العربية واطرافها من جهة والقارة الأفريقية من جهة اخرى. وكان لهذا الترابط أثره في تعزيز الدور الحضاري الذي قام به العرب في أفريقيا وكان الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا أثر رئيس في تقوية الصلات العربية الأفريقية، ولم يقف العرب في استقرارهم عند أفريقيا الشمالية، بل اتجهوا عبر الصحراء إلى السودان وإلى داخل خليج غينيا.

الكشف الجغرافي وبداية الاستعمار الأوروبي للقارة الأفريقية :

أولاً : الكشف الجغرافي :

تعد حركة الكشوف الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس عشر فاتحة للاستعمار الأوروبي سواء في أفريقيا أو في الأمريكيتين، ورغم أن نشاط المستكشفين البرتغاليين كان موجهاً في الأصل الى البحث عن طريق موصل الى الهند حيث منابع تجارة التوابل الانتزاعها من أيدي التجار المسلمين وتوصيلها إلى أفريقي عن غير طريق البلاد الإسلامية الواقعة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط فإن أفريقيا كانت هذا الطريق الذي يبحث عنه المستكشفون البرتغاليون طالما أراد هؤلاء تجنب الاصطدام بالمسلمين المسيطرين على طرق التجارة التقليدية من الهند الى أوروبا.

ويرجع الى البرتغاليين الفضل في كشف السواحل الأفريقية المطلة على المحيطين الأطلسي والهندي، إذ بدأت عملية الكشف البرتغالية بنزول الأمير (هنري الملاح) بن ملك البرتغال (يوحنا الأول)، الى مدينة (سبته) المغربية عام ١٤١٥م، ومنذ ذلك التاريخ ومن هذا المركز الاستعماري البرتغالي الأول في الساحل الأفريقي استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول أفريقيا التي انتهت بنجاح الملاح البرتغالي (فاسكو دي جاما)، في الدوران حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية الذي أطلق عليه أسم رأس الرجاء الصالح، في عام ١٤٩٨م ثم واصل سيره في المحيط الهندي بمعونة ملاح عربي هو (أحمد بن ماجد)، الى أن وصل الى ساحل الملبار في شبه القارة الهندية حيث بدأت أولى خطوات تأسيس إمبراطورية برتغالية في الشرق.

أستطاع البرتغاليون خلال القرن السادس عشر إنشاء عدة مستعمرات ومحطات عسكرية على السواحل الغربية والشرقية للقارة الأفريقية، مثل جزر (ماديرا) وجزر (آزورا) و(الرأس الأخضر) و(أنجولا) و(غينيا) و(موزمبيق)، الى جانب المراكز التي أنشأوها على الشاطئ الغربي لأفريقيا من (مراكش) حتى (الكامبيون)، وعلى الشاطئ الشرقي لأفريقيا في (كلوة) و(مباسا) و(سفالا)، و(مالندي) وغيره.

أقامت سياسة البرتغاليين بالنسبة لمستعمراتها ومراكزها في أفريقيا على أساس الاستغلال الكامل لمصلحة البرتغال، فحيث كانت الهند والشرق الأقصى أكثر جذبا اقتصر النشاط البرتغالي في أفريقيا على استخدام الشواطئ الأفريقية - حيث المحطات البرتغالية المسلحة - على تموين السفن البرتغالية والحصول على المواد الخام والرقيق، وعندما بدأت المنافسة الأوروبية للاستعمار قامت سياسة البرتغاليين على إقامة علاقات سياسية وتجارية مع الزعماء الأفارقة والتبشير بالمسيحية واحتكار التجارة مع الأفارقة بدعوى أن البرتغال تملك أفريقيا بحكم سبق مكتشفها في النزول الى الأرض الأفريقية.

بدأ البرتغاليون يفقدون معظم مستعمراتهم الأفريقية منذ نهاية القرن السادس عشر بنزول قوى أوروبية أخرى كالأسبان والهولنديين والفرنسيين والانجليز والألمان الى الأرض الأفريقية منذ بداية القرن السابع عشر، حيث نزل الهولنديون في رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢م، بينما كان الأسبان قد استولوا على بعض الأقطار العربية بشمال أفريقيا في النصف الأول من القرن السادس عشر ثم فقدوها بمجيء الأتراك، وانتهى الصراع بين البرتغاليين والقوى الأوروبية المتعددة في الشاطئ الغربي لأفريقيا في القرن التاسع عشر ببقاء (أنجولا) و(غينيا)، فقط مستعمرات برتغالية. وفي الساحل الشرقي لأفريقيا أخذ الصراع يشتد بين البرتغاليين من جهة وبين العرب والمسلمين والأفارقة من جهة أخرى ولم يأت عام ١٧٠٠م حتى كانت القوة الإسلامية قد أبعدت كل أثر للتجارة والجنود البرتغاليين من قلب المدن التي سبق أن نزلوا بها، ولم يأت القرن التاسع عشر حتى لم يعد البرتغال سوى مستعمرة واحدة بشرق أفريقيا هي (موزمبيق).

ومما تجب ملاحظته أنه لم يكن هدف البرتغاليين من كشف السواحل الأفريقية إقامة مستعمرات بل إقامة محطات ومراكز عند مصبات الأنهار، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة، وان اهتموا بحماية مراكزهم ومحطاتهم من اغارات الأفارقة، وكانت هذه المراكز والمحطات تقام في ناطق تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن أو المحطات البحرية التي تحتوي على مساكن الجنود البرتغاليين المكلفين بدراسة المحطات ومساكن للتجار البرتغاليين وخدمهم من الأفارقة.

كما يجب ملاحظة أن البرتغاليين فرضوا على الأفارقة احتكارا حرمهم من البيع والشراء الا معهم وبالشروط التي يفرضونها عليهم، كما استخدم البرتغاليون محطاتهم ومستعمراتهم في أفريقيا مراكز لتصدير الرقيق الأفريقي سواء الى مستعمرتهم الكبرى في العالم الحديد وأعني البرازيل أو الى المستعمرات الأوروبية الأخرى في العالم الجديد أيضا حديث احتكرت

البرتغال هذه التجارة لفترة طويلة قبل أن تدخل معها سفن الدول الأخرى في المنافسة، ومن ثم صارت مدينة « لشبونة » عاصمة البرتغال مركزاً رئيسياً لهذه التجارة تستقبل السفن المحملة بالرقيق الأفريقي وتصدره الى الأسواق الأوروبية وإلى أسواق العالم الجديد الذي صار مجالاً لاستعمار انجليزي أسباني فرنسي بصفة خاصة.

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق الدول الأوروبية في مجال الكشف الجغرافي والاستعمار، وفي الإجابة على هذا القسم، نذكر النقاط الآتية :

١- سادت الروح الصليبية في البرتغال وأصبحت محركاً أساسية البرتغالية خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مما أعطى البرتغال زعامة على العالم المسيحي في غرب أوروبا في الحرب ضد المسلمين.

٢- وقوع البرتغال وأسبانيا متاخمتين الإمارات الإسلامية في الأندلس وفي شمال أفريقيا، مما جعل الحرب مستمرة بين الإمارات المسيحية والإمارات الإسلامية، وزادت من حدة الإمارات المسيحية انضمام أمارتي أرجون وقشتالة الكاثوليكيتين في دولة واحدة.

٣- وقوع البرتغال على شاطئ المحيط الأطلسي على مقربة من القارة الأفريقية أعطاه أهمية استراتيجية وتجارية حيث كانت عاصمتها لشبونة مركزاً للتجارة الأفريقية المستوردة إلى أوروبا

٤- استعانة البرتغال بملاحين من جنية نقلوا خبراتهم البحرية الى البرتغال. الى جانب العلماء والجغرافيين الذين استفادت منهم البرتغال في وضع المصورات والخطط لإنشاء امبراطورية برتغالية في الشرق تبدأ بأفريقيا.

ويذكر بعض المؤرخين أن الأمير هنري الملاح أول ملاح برتغالي نزل الى الأرض الأفريقية سمع عن مملكة مسيحية أفريقية كبرى تقع الى الجنوب من بلاد المسلمين، وأن هذه المملكة - الحبشة - تتفق مع البرتغاليين ومع غيرهم من صليبي أوروبا في العداء للمسلمين، ومن

ثم اعتقد هؤلاء المؤرخين أن مدعي الأمير هنري الملاح لنشر العقيدة المسيحية في كل رقعة من الأرض الأفريقية يصل اليها البرتغاليون كان يعني انشاء صلات وثيقة مع تلك المملكة المسيحية في الحبشة التي يتزعمها (القس يوحنا) الذي سيطرت شخصيته على العقول في ذلك الحين حتى يستعين به الأمير هنري في الصراع ضمن المغاربة المسلمين، وحتى يستطيع البرتغاليون إذا ما تم انشاء هذه الصلات الزحف عن طريق نهر السنغال والوصول الى الحبشة، ومنها الى البحر الأحمر ومياني بلاد العرب والهند والصين من غير أن يتعرضوا لأخطار الطرق التجارية التقليدية التي يسيطر عليها المسلمون.

استفاد البرتغاليون من الخبرة البحرية أثناء حركة الكشف الجغرافية واكتسبوا المراتب في الحرب ضد الأفارقة وأصبحت السفن البرتغالية الى جانب اتقانه الملاحة محاربا ممتازا خصوصا في القارة ممتازا وسط البحريات القوية في القارة الأوروبية، كما أصبح الملاح البرتغالي الى جانب اتقانه الملاحة محاربا ممتازا خصوصا في القارة الأفريقية المسلح بأبنائها بأسلحة بدائية أمام بارود البرتغال ومدافعهم.

وعندما حصل البرتغاليون من البابا (مارتن الخامس) على مرسوم باكتشاف الطريق الى الهند وشن الحرب ضد المسلمين عام ١٤٥٤م زمن رحلات الأمير هنري الملاح، أعلنت البرتغال امتلاكها لجميع الشواطئ الأفريقية جنوب مراكش في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا تنشط في مجال الكشف والاستعمار في العالم الجديد مما أدى إلى حدوث صراع بين الطرفين الامتلاك الشواطئ والجزر الأفريقية، واستمر هذا الصراع حتى عقدت معاهدة «تروا سيلاس، Trodisellas عام ١٤٩٤م بين البرتغال وأسبانيا بمساعي البابا، نصت على امتلاك البرتغال جميع الأراضي الأفريقية التي تصل اليها جنوب مراكش حتى الهند، وأن تظل أسبانيا تمتلك جزر كناريا، وأن تعترف البرتغال بمصالح أسبانيا في مراكش واستثمارها للعالم الجديد.

تمثل الكشف والاستعمار البرتغالي لأفريقيا في استغلال الشاطئ الأفريقي كمحيطات للحصول على تموين السفن البرتغالية والحصول على المواد الخام والرقيق، ولم يكن اهتمام البرتغاليين بداخل القارة الأفريقية أكثر من الرغبة في اتقاء عداء السكان.

ويمكن أن نحدد مظاهر الكشف والاستعمار البرتغالي لأفريقيا في النقاط التالية :

أ - لم تكن أفريقيا تمثل هدفا عند البرتغاليين يصلون اليه ويحققونه، وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى تحقيق هدفهم الأسمى وهو احتكار تجارة الهند والسيطرة على البحار الهندية وشواطئها، وانحصر الاهتمام البرتغالي بأفريقيا في تأمين طريق الوصول الى البحار الهندية باقامة حصون ومحطات على الشواطئ الأفريقية الغربية والشرقية.

ب - لم يكن هدف البرتغاليين في البداية اقامة مستعمرات بل اقامة محطات مسلحة أو مراكز على السواحل الأفريقية، ولذلك لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة، وكل ما اهتموا به هو تأمين المحطات التي أقاموها على السواحل من أغارات الأفارقة.

ج - أختار البرتغاليون مناطق على الشواطئ الأفريقية تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوي على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة المحطات، ومساكن للتجار البرتغاليين وخذ مهم من الافارقة الذين يجبرون على اعتناق المسيحية الى جانب إنشاء كنيسة.

د - اعتنق البرتغاليون فكرة أن تجارة الهند لن تخلص لهم وحدهم إلا بالقضاء على التجار العرب والمسلمين في تلك الجهات، ومن ثم فقد هاجموا ودمروا جميع المدن العربية والاسلامية المزدهرة على الشاطئ الشرقي لأفريقيا وأقاموا مكانها محطات خاصة بهم.

ثانيا : تجارة الرقيق

الحديث عن تجارة الرقيق يدفعنا الى أن نلاحظ ارتباط تلك التجارة بحركة الكشف الجغرافية والاستعمار الأوروبي، وقد استأثر الساحل الغربي لأفريقيا بنشاط الدول الأوروبية في اقتناص